
رنقُ سَماء
منی قبس دخیل

إهداء

إلى أبي...

إلى أول حبّ سكن قلبي، وأول وطنٍ عرفتُ في ظلاله معنى الأمان.

أهديك حروفي، وإن عجزت عن وصف مكانتك،
وأهديك كلماتي التي يسكن بين سطورها شيءٌ منك.

أبي، ستبقى في روحي حكايةً لا تنتهي، وحبًّا لا يغيّره غياب، ولا يطويه زمن.

إليك أهدي هذا الكتاب، يا أجمل ما تركته الحياة في قلبي.

المقدمة

ليست الخواطر مجرّد كلماتٍ نكتبها حين نشعر، بل هي أجزاءٌ من أرواحنا أفلتت من صمتنا، واستقرّت على الورق.

هي أحاديث القلب حين تضيق به المسافات، واعترافات الروح حين تعجز الشفاه عن البوح.

في هذا الكتاب، جمعتُ شيئًا منّي، وشيئًا منكم، وشيئًا من تلك المشاعر التي نعجز أحيانًا عن تسميتها.

كتبتُ عن كل ما يلامس قلوبكم.

ستجدون هنا كلماتٍ تشبه الدموع التي لم تسقط، ورسائل لم تصل، وعتابًا تأخّر كثيرًا، وأحلامًا ما زالت تقاوم النسيان.

ستجدون وجوهًا غادرت، وأخرى بقيت رغم المسافات، وستجدون أنفسكم في سطرٍ لم تتوقّعوا يومًا أن يصف ما تخفونه في أعماقكم.

لم أكتب هذه الخواطر لأعلّم أحدًا كيف يعيش، ولا لأقدّم وصفةً للنجاة من الألم؛ كتبتها لأنني أؤمن أنّ للكلمة قدرةً عجيبة على ملامسة الأماكن التي لا تصل إليها الأيدي، وأنّنا حين نقرأ ما يشبهنا نشعر بأننا لسنا وحدنا في هذا العالم.

قد تقرأ بعض الصفحات فتبتسم، وقد تتوقّف عند أخرى طويلًا، وربما تعود إلى خاطرةٍ بعد أعوام فتجد فيها معنى لم تره من قبل؛ فالكلمات الحقيقية لا تشيخ، إنما تتجدّد بتجدّد أرواحنا وتجاربنا.

عزيزي القارئ...

لا تقرأ هذا الكتاب بعينيك وحدهما، بل اقرأه بقلبك.

خذ منه ما يشبهك، واترك ما لا يلامس روحك، وعد إلى صفحاته كلّما احتجت إلى كلمةٍ تفهمك، أو مرآةٍ ترى فيها ذاتك، أو رفيقٍ يصغي إلى صمتك.

فربما لم أكتب هذه الخواطر لأحكي لكم عنّي، بل لأمنحكم كلماتٍ تقول ما عجزتم أنتم عن قوله.

وإذا وجدتَ نفسك بين سطوري، فقد وصلت كلماتي إلى المكان الذي كُتبت من أجله.

إلى روحٍ تسكنني،

حين شيّدتُ لروحي صومعةً من وردٍ ونور، ظللتُ أترقّب الربيع فلا يأتي، كأن الانتظار صار صلاةً طويلةً في حضرة الغياب.
رمّمتها كثيرًا لكنّ الصقيع والريح والشمس أقوى مني..
جاء الربيع أخيرًا ووجد الصومعة منهارة،
وجدني في العراء يسكنني اليأس كضيفٍ ثقيل.
لكن الربيع لا يطرق أبواب الحجر، بل أبواب القلوب؛
وحين طرق باب قلبي؛ وجده مخلوعًا، فأصلحه بكلماته الجميلة، كأنها مفاتِح من نور.
غادرتَ جسدك، وتركته مركونًا في الغربة، وجئتَ بروحك لتصلح ما أفسده الزمان بي.
صرتَ ظلًا يرافقني حين أهمس بأذن الأرض لأُسمِعَ ربَّ السماء، وصرتَ عيونًا أراها بين خطوط كفي بعد سجودي، تواسي ضعفي وتضمّد حزني.

كنتُ أخبرك دائمًا أنك حاضر في دعائي وقلبي، فتغيب بجسدك لكن روحك تبقى بيتي، صومعة الورد والربيع وكل الفصول.

أنت غيثي ونوري وزهري،
أنت غبار الذهب الذي ينسكب من بتلات الأمل على شرفات قلبي، ليحوّل العراء إلى جنّة، واليأس إلى وعدٍ بالضياء.
سلامٌ عليك ما دام الدعاء يصل، وما دام القلب يكتبك في كل فصلٍ من فصوله.

آلة باردة

كنتُ أحمل قلبَ طائرٍ في صدري، لا قلبَ بشر.
أبتسمُ للأنام، وأرسمُ ضحكاتي على أوراق الشجر،
فيغيبُ الخريفُ كي لا يسقطها، ويسلّم مفاتحه للربيع.
لكنّ قلبَ الطير تحوّل آلةً باردة، لا تُبقي لي سوى قيد الحياة، يسكبُ الدم في عروقي اليابسة لأتنفّس.
اجتُثَّ قلبي، ومشى عليه بخطواتٍ طاحنة، فرماني بين جفنات التيه والحزن.
صفعني صفعةً أفقدتني نفسي، فبتُّ ظلًّا لا أكثر، أبحث عنّي فلا أجدني.
تبرّأ الربيعُ منّي، ورمى الخريفُ ضحكاتي، وكان سهمه مسمومًا. سمّم ملامحي التي جرّمتني.

أنا الآن أثرٌ يتيم، أستجدي وجهي بين شظايا المرآة،
وأتساءل: أين أجدني؟
في غيابٍ يزداد حضورًا، وفي وجعٍ يزداد بلاغةً، كأنّ حياتي نفسها صارت قصيدةً منكسرة تبحث عن اكتمالها في صمتٍ لا ينتهي.

على ضفاف الذّكرى

بين جفون الزمن، على سفينةٍ تمخر عباب الماضي، تركتُ بعض الصور المعلّقة كأسرارٍ لا تذبل.
صورٌ قديمة تتشابك بخيوط المستقبل، تحمل رائحة المكان الذي احتضن الأحاديث الدافئة، كأنها ذاكرةٌ تتنفس بين جدران القلب.
جلستُ أراقب أمسي، أستعيد ضحكاتي التي تفرّقت بين تلال الدوائر الزمنية، وألمس ملامحي المبعثرة كأوراقٍ في ريحٍ لا تهدأ.
أشكو لنفسي شوقًا أكل ضعفي، وذكرى ثقيلة كصخرةٍ أحنَت ظهري، لكنها رغم قسوتها تظلّ شاهدةً على أنني كنتُ يومًا حيّةً بالحب، بالضحك، وبالحنين.

على كفِّ الانتظار

أجلس على كرسيٍّ مهترئٍ يشبه جسدي،
أقلب عقارب الساعة لأرى شباباً
تاه بين جدران السنين.

ربيعي غادرني،
وطيفٌ أرهقتُ عليه تركني،
فبتُّ أرجوحةً معلّقةً
على كفِّ الانتظار.

آه يا زمن،
آه من خيوط نورٍ قيدتني،
كأنني أسيرٌ في ذاكرةٍ
تتغذّى من صورٍ قديمة.

أحيا على الذكرى،
وأنتظر نهايةً
تدفن وحدتي
في صمتٍ لا يشيخ.

جسرٌ مزدوج الوجهين

القلب وما أدراك ماهو؟
إنه ليس مجرد كتلة لحمية تنبض في الجسد، بل هو نسيج معقد يجمع بين العقل والروح، بين الإدراك والشعور، بين ما وراء الماديات وما يعيشه الإنسان في تفاصيل يومه.
جسر مزدوج الوجهين؛ وجه عاقل يحلل ويفكر ويفند، متصل بعوالم الروح والوعي، ووجه آخر يفيض بالدموع والابتسامات، بالحب والانكسار، بالكره والحنين.
هذا النسيج الفريد يجعل القلب أكثر من عضلة لا إرادية تضخ الدم؛ إنه كتلة إدراك واعية ولا واعية في آن، ترسم خريطة وجودنا على خطوط الحياة كبصمة لا تتكرر، وتربط الخيوط كلها بشرايين عقلية وأوردة إحساس عالية الدقة.
صلاحه صلاح الإنسان، وفساده فسادٌ ينعكس على الفكر والسلوك والروح.
وكما يحتاج البيت المهجور إلى تنظيف من غبار السنين، يحتاج القلب إلى صيانة يومية دقيقة: دعاء يفتح

أبواب النور، ذكر يربط الروح بمصدرها، تسامح يزيل عوالق الكراهية، وحب يعيد إليه دفء الحياة.
هذه العمليات ليست رفاهية، بل ضرورة تحفظ صفاء القلب وتعيد إليه قدرته على قيادة الإنسان نحو التوازن.
يضبط التفكير والإحساس، ويوجه الدماغ والروح معًا.
إنه ليس تابعًا، بل قائد خفيّ يصنع من الإنسان كائنًا مميزًا بقدر ما يعرف وظيفته الحقيقية.
فالعقل صفة القلب، والوعي ماهيته، والروح امتداده، وكلها تتكامل لتجعل الإنسان أكثر من جسد عابر، بل حضورًا متفردًا في هذا الكون.
إنه نسيج يختزن سرّ الهوية الإنسانية، ويكشف أن معرفة القلب هي معرفة الذات، وأن إهماله ضياع في متاهات الحياة بلا بوصلة.
يجمع بين كونه مركز الوعي والهوية، مرآة الداخل، ومفتاح التوازن بين العقل والروح، ومن يكتشفه حقًا يكتشف نفسه.

فهل أدركتم أخيرًا بأن العقل والقلب وجهين لعملة واحدة؟

ربيعٌ مُهاجر

هجرَ الربيعُ فصولَ السنة،
واستوطَنَ بقايا جسدي،
ملكني، احتلَّني،
لكنني حين صرتُ عظامًا رميمًا
عانقني كظلٍّ يتلاشى في الفراغ.
كنتُ أرضًا خضراء،
بجسدٍ مهترئ،
فغدوتُ صحراءَ يابسة،
تسكنني ريحٌ بلا وجه،
وتحملني إلى غروبٍ
لا يعرفُ عودةً ولا بداية.
يا زمن،
أيُّ سلطانٍ هذا الذي ينهشني،
ويتركني أثرًا باهتًا
ويترك بقايا زهرٍ باهتة
في كتابٍ لا يقرأه أحد؟

منذ ثمان سنواتٍ

لم يكن بعدك اختيارًا، بل قيدًا شدّك إلى جدرانٍ باردةٍ لا تعرف الرحمة،
فبقيتَ هناك، أسيرًا بين صمتٍ ثقيلٍ وظلالٍ لا تنكسر.
أما أنا، فقد تُركتُ على عتبة الفقد،
أبكي فراقك حتى غدت دموعي نهرًا يفيض بالحنين،
أحمل وجع الغياب بعد أن فقدت قطعة من روحي.
وأتلمّس حضورك بين قطع القماش التي أرادت
احتضانك مثلي.
كل يومٍ يمضي، أستعيد تلك اللحظة،
كأنها جرحٌ يتجدّد، وكأن قلبي لا يعرف سوى أن يكتبك بالدمع،
لكن اللّٰه، بلطفه الذي لا يُحدّ، منَّ عليّ باللقاء،
فانشقّت غيوم العذاب، وأشرقت عيناي برؤياك،
كأنني أُبعث من جديد، وكأن الدموع التي أغرقتني
تحوّلت إلى نهرٍ من فرحٍ يروي قلبي بعد طول ظمأ.

ندبةٌ مُعلِّمة

المسامحة والتسامح والغفران ليست هبةً نمنحها للآخرين فحسب، بل هي طقسٌ داخلي نمارسه لننقّي أرواحنا من أثقالٍ لا تحتملها القلوب الشفافة.
فهناك قلوب بيضاء، رقيقة كزجاجٍ نقي، تتأذى من أي شعورٍ سلبي يلامسها، وتكاد تنكسر تحت وطأة الغضب أو الحقد. وحين نلقي ما يثقلنا، ندرك أن الماضي لا يعود، وأن ما كُتب بين صفحات القلب يترك ندبةً لا تُمحى، ندبةً تُعلّمنا أن لا نكرر ذات السقوط.
نعم، نسامح ونغفر، لكن العلاقات لا تستعيد عافيتها الأولى، وقد نغادر الأشخاص والروابط وكل ما يذكّرنا بالجرح.
وأي علاقة تشبهها قد توقظ فينا ذات الألم، فتجعلنا أكثر اكتفاءً بذواتنا، وأشدّ حرصًا على سلامنا الداخلي.
عندها نصنع نسخة جديدة من أنفسنا، نخلع القديمة كما يُخلع ثوبٌ مثقل بالغبار، ونرتدي أخرى أكثر صفاءً ونقاءً.
فالعيش بسلام ليس رفاهية، بل هو الغاية الكبرى التي يسعى إليها البشر جميعًا؛ أن نصل إلى سكينةٍ تجعلنا قادرين على التخلي عن أي شيء، مقابل أن نحيا بقلوبٍ مطمئنة، لا يثقلها سوى الحكمة التي تركتها الندوب.

زلزال أمل

بنياني الذي صدعته المنايا وتناوبت عليه العواصف حتى غدا ركامًا يستجدي يدًا تعيد له ملامح الحياة، كان كلما امتدت إليه يدٌ لتشيّد جدارًا من صبر أو نافذةً من نور، هبّت ريحٌ عاتية لتعيده إلى هشيمه الأول.

غير أنّني حملت حفنةً من ذلك الركام، ونثرتها بين السماء والأشجار، فابتلعتها الأرض كأمٍ عطشى، ثم أنجبت من رحمها قصورًا من الأمل، شامخةً كأنها وُلدت لتقاوم الانكسار.

فصار الخراب بذرةً للبناء، وصار الركام أصلًا لعمارةٍ جديدة، تُعلّمني أن كل سقوطٍ يحمل في جوفه وعدًا بالنهوض، وأن الإيمان سبيل تحقيق الأحلام.

هذي أنا

أميلُ إلى الحجرِ حين يبوحُ بصمته،
إلى الفخارِ حين يخبّئُ في مسامهِ ندوبَ النار،
إلى الطينِ حين يلتصقُ بيدي كعهدٍ لا ينكسر،
إلى الخشبِ حين يشيخُ واقفًا كجنديٍّ يحرسُ ذاكرةَ الأرض.

فنجاني المفضّل،
باهتُ اللون، مثقلٌ بالكدمات،
لكنّهُ يظلُّ أصدقَ من كلِّ جديد،
يحتفظُ بمرارةِ قهوتي،
وبارتعاشةِ أيامي.

أعشقُ العتيقَ،
ففيه أرواحٌ لا تُرى،
وفيه تاريخٌ يتردّدُ كهمسٍ في جدارٍ قديم،
وفيه بقاءٌ يتحدّى زوالَ البشر.

أجدني بين نهرٍ وبحر،
بين سماءٍ وأرض،
بين وردٍ وشمسٍ وعشب،
ولا أجدني بين بشرٍ
يُقيمون على طاولاتهم
حفلاتٍ للأقنعة،
يبدّلون جلودهم كما يبدّلون ملابسهم،
ويعتبرون وجوههم عورةً.

زهرةً أجدها بجانبي،
لكن يدًا أحتاجها لا تمسكُ يدي.
لهذا وضعتُ حدودي:
من يدخلها فليدخلْ بنقاء،
ومن يلوّثها،
فليخرجْ سريعًا،
وليُغلق الباب خلفهُ إلى الأبد.

نحنُ لسنا نحن

القهوةُ مرآةُ المكان،
تتبدّلُ نكهتُها بتبدّلِ الفنجان،
تُعلّمنا أن الطعمَ ليس في البن وحده..
بل في الوعاء الذي يحتضنه..
وفي العيونِ التي ترافقها،
وفي اللحظةِ التي تُسكبُ فيها.

المحيطُ يغيّرُ كلَّ شيء،
يُعيدُ تشكيلَ المعنى،
حتى نحنُ،
لسنا نحنُ تمامًا،
إلّا بما يحيطُ بنا،
بما يزرعُ فينا ضوءًا أو يطفئه،
بما يفتحُ لنا أبوابًا أو يغلقها.

فنجانٌ جديد،
طعمٌ جديد،
وحياةٌ تتبدّلُ في كلِّ تفصيلٍ صغير.

السكينة بريئة

طعنةُ القلب ليست من السكين، فالسكين بريئة، إنما اليد هي المجرمة، ويدٌ عن يدٍ تختلف؛ يدٌ كانت تزرع الورد وتنثر الود فإذا بها تذبح بلا رحمة.
كشجرةٍ تلد غصنًا ليغدو مقبض فأسٍ يقطعها، ويدٍ قطفت ثمارها وشبعت ثم اجتثّت جذورها.
بينما الريح تشفق على أوراقها، وتناجي الخريف أن يتريّث كي تنحني الشجرة.
هكذا يتبدّل الحنان إلى خذلان، والقرب إلى أقسى الطعنات.
إنها مأساة الغصن الذي خان جذره، واليد التي غدرت بما غذّاها.

كيف حالك يا وطني؟

أما زلت في غرفة الإنعاش، تتنفس من بين سحابات الدخان؟
أما زالت جدرانكَ هشة قصيرة، أم أنك تنهض رغم الجراح لتعلن أنك على قيد الحياة..
أولادك كبروا في حضن الموت والحرمان، وسماءك استُبيحت، وأرضك شبعت دمًا، وأشجارك لم يغادرها الخريف.
أطفالك هرموا قبل أوانهم، وشبابك رحلوا، والأمهات اعتزلن البكاء فتبنّاه القلب في صمتٍ طويل.
عن ماذا أكتب؟
عن درعا التي صارت جرحًا، أم عن دير الزور التي غدت صدىً بعيدًا؟ عن الشام الحزينة، أم عن حلب التي تصرخ؟
عن السويداء واللاذقية، أم عن كل الجهات التي تحمل اسمك؟ أأكتب عن العدو أم عن الأخ، عن الأب أم عن الابن، عن ماضٍ ترك ندبةً فينا أم عن غدٍ يعرج بلا منسأة؟

ظنّوك قطعة حلوى، يطفئون الشموع فيها ليتمنّوا أمنيةً سرية، ثم يتقاسمونك مع كأسٍ من دمائنا، ويرحلون تاركين الكراسي تهتزّ بصوت تكسير عظامنا، تاركين زينةً وبهرجًا وسكاكين وفوضى.

لكنك لست كذلك يا وطن ..أنت نقطة البداية والنهاية، محطة النصر، و صلة الوصل بين الحلم والواقع، أنت قِبلة الحضارات وأخ العرب وخير الإسلام.
فلننهض معًا، يا وطن، ولنحرق الجراح والجرائد، فقيامة النصر تبدأ من الياسمين، ثم تمتد إلى الزيتون والبرتقال.. هاتِ يدك يا قلبي المتناثر على خريطة وللننهض.

وجوهٌ مُجهضة

يتأرجحُ العقلُ المكدودُ في
أرجوحةٍ تُغريه بالآلامِ

يرسم وجوهًا لا تُسمّى، ثمّ ما
يلبثُ سقفُ الوهمِ بالإظلامِ

أأثقلتُ لوحَتَهُ فمالَ وأسقطَ؟
أم أنّهُ لا يهوى سوى الإعدامِ؟

أم أنّ مَن لا اسمَ يحفظُ وجهُهُ
يُمحى سريعًا مثلَ طيفٍ هامِ؟

يفتح لبّي بابَ عالمٍ خفيٍّ
لا يُبصرُهُ إلّا فؤادُ هيامِ

أسئلةٌ تُتلى بلا أيِّ جواب
وسِنةٌ تُخفي صدى الأفهامِ

فلعلَّ جهلَ المرءِ أهونُ منْ
يقينٍ يُثقلُ قلبَ كلِّ غُلامِ

ولعلَّ نومَ العقلِ أرحمُ من
أرجوحةٍ تُغرقهُ في الأوهامِ

نم يا عقلي، قد أتعبتَ خطايَ
وأرهقتَ روحي بالأسى والآلام

عتاب..

قلبي يُنادي في الهوى مُتلهِّفًا
يَسعى لِوصلٍ في المحبَّةِ مُشرِفِ
أبدي لكَ الروحَ السَّنيَّة طَوعها
فالعشقُ يسري في دَمي المتلهِّف
إن رُمتَ وصلاً فالهَوى يَكفي بهِ
والوعدُ يزهرُ في جوانح مُعطفِ
أرجوكَ لا تجحَد صفاء مودَّتي
فالعهدُ أوفى من جفاءٍ مُرهفِ
أهفُو لنسمةِ ليلكَ المُتمايلِ
تَسقي فؤادي بالهَوى المتألِّف
وإذا تجافتْني الليالي قسوةً
أحيا بذكرِكَ في جوانحِ مُعطفِ
فالعشقُ دربٌ لا يُقاسُ بمالِنا
بل بالثباتِ على الوفاءِ المُشرِف

قيد الورد

فتح لها الباب، لم تره لكنه رآها، خطبها فوافقت، قيدها بالورد والشوك وحبسها في قلبه.

ذبلت سريعًا، أغلقت أبواب الدنيا بوجهها، ومات قلبها قبل أن يشيّعها أحد.

بقيت جثة مؤجلة الدفن، شاهدة على حبٍّ كان قيدًا، وعلى حياةٍ لم تُمنح فرصة أن تزهر.

النفس الأخير

في قاعِ الذاكرةِ، عندَ المنحدرِ الأخير،
تتهاوى الكلماتُ من زاويةٍ مظلمة،
تغرقني،
فأرفعُ يدي لعلّي أجدُ من يسحبني.

وعندَ النفسِ الأخير،
أشعرُ أنّني أتنفّسُ من جديد،
على ضفّةٍ خاليةٍ من الأخضر،
استوطنها القلقُ،
فأجثو لأصفعَ نفسي،
وأوقظها من هذا الحلمِ الثقيل.

أفتحُ يدي،
وردةٌ نائمةٌ، غارقةٌ بالحبر،
ابتسمتْ لي لحظةً،
ثم ماتتْ،
وتركتني أمامَ صدى الفراغ،
أبحثُ عن حياةٍ أخرى
في رمادِ ابتسامةٍ لم تكتمل.

مكحلةُ الحبر

أشتاقُ إلى مدينةٍ لم تطأها قدماي، ومع ذلك تسكنني كما يسكنُ الحلمُ قلبَ النائم.
أشتاقُ إلى شوارعٍ لم أعبرها، وإلى رائحةٍ لم أعرفها، وإلى قهوةٍ لم أحتسها، كأنني عشتُ دهورًا بين جدرانها دون أن أراها.
أصبو إليها كما يصبو العاشقُ إلى غائبٍ لا يعود، أراها بثوبٍ أبيضٍ تبتسم، فيما يقولون إنها ترتدي السواد وتبكي.
أرى غيماتها حبلى بالخصب، فيما يزعمون أنها أجهضت.
لكنني أراها ملكةً لا تنحني، تاجًا لا يُنتزع،
أعشقُ بيوتها السمراء، ورائحة الخبز والياسمين، أعشقُ هذا الحنين الذي ينهشني..أكتبها حبًّا عذريًّا طاهرًا لا يشبه أي حبٍّ آخر.
هي حبيبتي وأمّي،
شامي ووطني،
نذرتُ القلمَ ومداده كحلًا لعينيها، فكيف لا أذوب فيها وأصبو لتقبيل يديها؟

ضمّني يا وطني

هذي حبيبتيَ ما برحت صبــورَه
تُعطي وتُغدقُ لا تُريدُ أجورَه

تسقي القلوبَ بماءِ حُبٍّ دائمٍ
وتضمُّنا كي لا نذوقَ نفورَه

لكن جحودُ الناسِ يقتلُ نبضَها
ويُذيبُ روحًا قد غدت مكسورَه

نأتي ربيعَ بساتِنِها فننهلُ
زهرًا وثمرًا، ثم نُدبِّرُ غرورًا

حتى إذا ما حلَّ بردُ خريفِها
تركَ الجميعُ جذورَها مهجورَه

تتساقطُ الأوراقُ في أنفاسِها
وتذوبُ بالشوقِ الذي يزورا

أولادُها عاقونَ، وهي حنونة
تبكي، فتُخفي دمعةً مسجورة

لا تبكِ يا أمّي، فأنتِ حياتُنا
وأنا لكِ السندُ الذي لا يبورَه

سأظلُّ في ربيعِكِ المزهوِّ دومًا
وفي شتاءِكِ، في الفؤاد نورَه

سأبقى بحضنكِ لا أغادرُ غيرَما
أرجع ترابًا في رحمِكِ قبورا

أذوبُ فيكِ كما يذوبُ مطرُ السما
وأصيرُ منكِ، فأنتِ أمٌّ، وطنٌ وشعورا

بساط أم وطن ؟

قفوا، لنشرب من كأس يفيض باسم الوطن كأس يختلط فيه الدمع بالزغرودة فينسكب على المقل نورًا ووجعًا.

قفوا نرثي الجهات الأربع جنوبه وشماله، شرقه وغربه كل ذرة تراب تحمل ذاكرة لا تُمحى كل شبر يئن من غياب العناق.

أين أنت يا وطن؟ ظنوك بساطا تُشدّه الأمم لكنك لست بساطا يطوى أو يفرش أنت روح تسكن الجسد وجسد ينهض بالروح أنت المعنى الذي لا يختزل والهوية التي لا تُمحى.

"مؤجلة الدّفن"

ليت وصالك دائم ووصال الأنام مقطوع، ليتني بذور
عشق متناثرة في تربة فؤادك تزرعها فتنبت روضًا
وورودًا وعناقيد عنب ورمان وريحان.
ليت السّاعة تهدم كوخ الوحدة الّذي علقتُهُ على خصر
عقاربها المنسية.

غادرتني دون وداع أو وعد بلقاء لكنك لم تغادر لوحدك.
أخذت معكَ قطعةً مني كانت تلتحفني لتواري ثوبَ
ضعفي المُرقّع.

مالك ومال ثقوبي لتزيد في خرقها فينفد من بين
العروق طيفك المُتسلل من ضريح ذكراك.

أيّن تلك الأسقف والجدران الّتي أحاطت عراءنا.
أيّن دموعي الّتي تبخرت بجمرة الفراق الّتي أشعلتها في
صدري.

أيّن أنا ؟.. لا أجد انعكاسي في مرايا الحياة..
لا أجد بريق عيني الّذي رشقته بنظراتك الرّؤومة.
للّه درك ودر هذه المُضغة الّتي جرّتني إليك مُكبلة الأيدي.

إنّي سقيمةٌ ومقطعةُ الروح بانقطاعك وتلاشي زحام كلماتك الوردية.

إنّي جثةٌ على قيدِ الحياة مؤجلة الدّفن وبلا قبر يحضنني ويلم رفاتي.

"حنيفةُ الظّهر "

تراكمت المنايا فوق ظهري الهش حتّى حطّمت مرايا
الفرح المركونة فوق وجنة الورد في وجهي .
كلّما انحنيت؛ تنهمر قطعي المُتبعثرة فوق انعكاسي
المكسور فتُريني وجهي الّذي غزاهُ الهرمُ في ريعانِ
شبابه.
شاخت عروقي وتناثرت كغبارِ الطّلع حين تتناقلهُ
نسماتُ الرّبيع لكنّهُ لا يُنجب .
كان عقيمًا، بلا ذُرّية، بلا أثر .
كان هباءً منثورًا، يذوق مرارة الحرمان بعد تيبُّسِ رحمِ
السّلام والأملِ بجوفه.
ينام وجفونُ اللّيل تنسدل على أكتافه المُتقهقرة كجنديٍ
ناجٍ من معركة لا ناقةً له فيها ولا جمل .
لكنّه نجا وبعضًا منه في ساحة الوغا .

ناجٍ لكنّه مقطوعُ اليدين ومسلوبَ الهوية.
كم أتألمُ حين تتساقطُ قِطعي أمامي فترتصفُ كمرآةٍ نصفَ مكسورةٍ لتُريَني وجهيَ المُتواري عنّي منذُ سنين.
تتساقطُ بجروحٍ عميقةٍ تُخلِّفُها دونَ قطرةِ دمٍ واحدة.
خسرتُ دمي مع آخرِ دمعةٍ جفّت على ضفافِ ملامحي الجافة.

"ستارة "

مجرّد ستارة أعلّقها على صندوقِ أحزاني.
مجرّد غطاء ملوّن والفراشات تحوفه من كلّ جانب،
يستر خيباتي وآلامي.
ابتسامة تسترني وتلمّ شتاتي وتبعد أعين الشامتين عنّي.
ألبسها بين البشر؛ لأدفع عني الأسئلة الغير مرغوبة.
أخلعُ ذاك القناع الّذي تعتليه ابتسامتي عندما أركن قلبي
للوحدة المعهودة وأعترف لنفسي كم أنا حزينة وكم
وجهي مجعدُ الفرح ومطويٌّ البسمات.

"موتٌ رحيم"

يقف على ضفّة الأمان بحلّته الأنيقة ويتفيّء بشجرة الحياةِ المُخضرة الّتي تداعبهُ بأوراقِها الخضراء المليئة بروحِ النّعيم.
إنّه قدري، قدرٌ رؤومُ القلب وبهيّ الطّلعة.
تذوبُ جفونه كورقةٍ بلّلتها قطراتُ المطر فاختلط الحبرُ وضاعت القوافي وذابت النّقاط الّتي تعتلي رؤوس حروفها.
يرمُقني بنظرتهِ المُعتادة بينما الغرقُ يكاد أن يقضّ مضجعي ويمزّق آخر نفس في صدري.
ناديتهُ، أيا قدري، أيا ناظري ومشفقي.
فُكَّ قيدَ الموت عن عنقي وأرِق دم قاتلي.
امنحني قبلة حياةٍ أخيرة لأخلّدها بين شرايين ضعفي المُقطّعة.
لم يُجبني لكنّه ارتدى قناع الحزن وأخرج حبلًا معقودًا من جيبه الثّري وألقاهُ نحوي.

كنت أصارعُ الموت ويداي ترتجفان والماء يسحبني لرحمِ النّهر.

مازال الحبل يحملُ رائحة جيبهِ الثري ومازلتُ أحاولُ فهم مايجري.

مازال يبكيني ومازلتُ أبحث عن بداية الحبل ونهايته. كان قدرًا وفيًا وحاول قتلي بحبلٍ مُكبّل الخير ومعقود الأطراف لكنّ الماء كان أرحم منهُ وعانقني عناقهُ الأخير.

..11:11

عندما لمس عقرب الساعة الرقم 11 وعقرب الدقائق
كذلك فعل؛ نظرتُ للرزنامة المعلّقة على الحائط ..كان
اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني.
لقد كان كلُّ شيء متشابه إلا أنا.
أتناقض مع كل مايحيطُ بي.
كان الحوار بيني وبين صوتي الدّاخلي يصدر صوتًا
كصوتِ الريح عندما تغضب...لكنني في وسط الضجيج
كله سمعتُ صوتَ قلبي يناديني،
بحثتُ عنه بين أنفاسي المتعبة، فلم أجده.
أين هو؟
مشيتُ طويلًا، لكن قدميَّ تخلّتا عنّي،
زحفتُ إليه، فهرب حين رأيتُ ظلَّه.
كنتُ في غفلةٍ، ولم أشعر بغيابه،
فلمَ لم يُنادني من جديد؟
لماذا لا يريد أن يراني؟
هل مرَّ بلحظة ضعفٍ وشوق، أم لم يكن صوتُه أصلًا؟

قد يكون الزمن أنساني إيّاه،
لكنّني، وإن نسيتُ كلَّ شيء، لا أنسى صوتَه.
كيف لأحدٍ أن ينسى نبضات قلبه؟
لا أعرف ما الذي حدث.
أأنا مَن أذنبتُ حين مللتُ الانتظار، ونسيتُ، ثم مكثتُ في قاع جسدي؟
أم قلبي هو المذنب، حين خلع جذوري ورماني، ثم ناداني وهرب، كي يجلدني بسوط اللوم والحيرة؟
آه يا قلبي، بات حلمي كله وأمنيتي في هذه اللحظة أن تعود إليَّ لتدفئ ضلوعي التي أكلها الصّقيع من دونك.

قتيلة

أشعر بالعجز وفقدان الشغف..
ماذا أفعل؟
أأذرو نفسي ذرًّا أم أنثرها نثرًا؟
استبقني الخذلان، وأرداني قتيلةً.
أين أجدني؟ وأين أدنو؟
بين وتر البقاء ونغمة الرحيل، أين أُخبّئ دموعي وآهاتي،
وعيناي تفضحانني.
سأختارُ الرّحيل...لعله يداوي جروحي.

بثرةٌ في عنق التريّث

بثرةٌ استوطنتْ عنقَ التريّثِ في قصائدي، فلا هي ماتتْ، ولا أنا استطعتُ انتزاعَها من حنجرةِ الكلام.

تؤلمني حينًا، وتنخرُ العصبَ حينًا، وتتركُ في صمتي ندبةً لا تراها العيون.

كأنها وجعٌ صغيرٌ اختار أن يكبرَ في داخلي، كلما حاولتُ أن أكتبَ النجاة أعادني إلى أولِ الخذلان.

أُداريها بحبرٍ، فتنزفُ القصيدة، وأُخفيها بين السطور، فتفضحني الاستعارات.

يا لهذه البثرةِ العنيدة! كم مرةٍ قلتُ: شُفيتُ، وكم مرةٍ عادت لتوقظَ في روحي ما نام.

ليست جرحًا عابرًا، ولا حكايةً انتهت، إنها شيءٌ عالقٌ بين ما أردتُ قوله وما أجبرتني الحياةُ على ابتلاعه.

وكلما أمسكتُ قلمي ظننتُ أنني سأكتبُ قصيدةً، فإذا بي أكتبُ وجعي من جديد.

نار وماء

أبيتُ في ثنايا قلبه، أرتّب أحلامي على وسادة نبضه، وأظنّ أنني وجدتُ أخيرًا مكانًا لا تطالني فيه وحشة العالم...

ثم يهجرني، كأنني لم أكن يومًا النبض الذي احتمى به.

أبتعد... فيمدّ إليّ شوقه، يتعلّق بي كغريقٍ رأى في غيابي آخر شواطئ النجاة.

أعود... فيبتعد، وأمضي... فيقترب.

نحن حكايةٌ لا تعرف الاستقرار، كلّما أطفأ أحدُنا نارَه أشعلها الآخر.

أنا أهرب منه، فيبحث عنّي في تفاصيله، وهو يتركني، فأفتّش عنه في صمتي.

كأننا نارٌ وماء، لا يجمعنا احتراق، ولا يطفئنا انطفاء.

نقترب حدَّ الذوبان، ونفترق حدَّ الوجع، وبين اقترابٍ يربكني وغيابٍ يقتلني أظلّ أتساءل:

هل نحن عاشقان لا يعرفان كيف يحبّان؟ أم أن بعض القلوب خُلقت لتظلّ متعانقةً من بعيد، كلّما حاولت أن تسكن بعضها أحرقتْها المسافة؟

لم أكن له

قال لي ذات حب: «أنتِ لي»...

وكان يقولها بثقة رجلٍ يظنّ أن امتلاك القلب يشبه امتلاك الأشياء.

لكنه لم يكن يعلم أنني لم أكن له يومًا، كنتُ أقف على حافة الحب، أمدّ إليه قلبي وأشدّه بالخوف في اللحظة ذاتها.

كان قلبي معلّقًا بالشك، يسألني كل ليلة: هل يحبّني حقًا؟ أم يحبّ الصورة التي رسمها عنّي؟

وكان هو معلّقًا بي، يتشبّث بحضوري، يخاف غيابي، ويقرأ في صمتي ألف احتمال.

كان يظنّ أنني له، وكنتُ أظنّ أنني أحاول أن أكون.

هو أحبّني كمن وجد وطنه، وأنا أحببته كمن يخشى أن يكون الوطن منفى آخر.

ما كان ينقصنا الحبّ، ربما كان ينقصنا اليقين...

فهو كان يخاف أن أفلت من يديه، وأنا كنت أخاف أن أضع قلبي بين يديه فلا أجده حين أحتاجه.

نسخة من الخذلان

صفعني بكفِّ الخذلان، لم يكن صوت الصفعة عاليًا، لكنّها وصلت إلى أعماقي، كسرت عظامي التي لا يراها أحد، وشوّهت قلبي حتى لم يعد يعرف ملامحه.

لم أصرخ... كان الوجع أكبر من أن يُقال، وأعمق من أن تلتقطه دمعة.

منذ تلك اللحظة لم أعد أنا، لم أعد تلك التي تضحك من قلبها، ولا التي تمنح الأمان دون أن ترتجف، ولا التي تفتح نوافذها للحب دون أن تتحسّس شظايا الزجاج.

شيءٌ ما مات في داخلي، وشيءٌ آخر وُلد مشوّهًا بالخوف.

أصبحتُ نسخةً من تلك اللحظة، أحملها في صوتي، في نظراتي، في ارتباكي حين يقترب أحدهم، وفي صمتي حين يسألني أحد: ما بكِ؟

كيف أشرح لهم أنني لم أتغيّر مع الأيام، بل توقّفتُ عند صفعة، وأن الزمن مضى من حولي بينما بقيتُ أنا هناك...

في اللحظة التي كسرني فيها، ولم يلتفت حتى ليتأكد إن كنتُ ما زلتُ حيّة.

رمادُ الغياب

أتنفّسه... فيخنقني، أقترب منه لأستعيد أنفاسي، فيبتعد، كأنّ حضوره نجاةٌ لا أستحقّها.

يمنع نفسه عنّي، لا يتركني أرحل، ولا يمنحني ما يكفي لأبقى، يتركني معلّقةً بين احتياجٍ ينهشني وغيابٍ يتقن تعذيبي.

يريدني أن أذوب بسرعة، أن أتلاشى في نار الانتظار، أن أصبح رمادًا دون أن يحمل هو ذنب الحريق.

يا له من بارعٍ في الغياب! يشعلني من بعيد، ويُخفي يديه، كأنّ النار اشتعلت وحدها، وكأنّ قلبي اختار احتراقه.

لا يقتلني، فالموت يحتاج إلى شاهد، ولا يعترف بأنّه أحرقني، يكتفي بأن يسحب دفأه ويتركني أرتجف في برده.

وأنا... ما زلت أبحث عن هواءٍ لا يحمل رائحته، عن نجاةٍ لا تمرّ من صوته، عن حياةٍ لا أضطرّ فيها أن أطفئ نفسي كي لا أحترق به.

فبعض الغياب ليس رحيلًا، إنّه حريقٌ مؤجّل، وبعض الذين نحبّهم لا يتركون فينا جرحًا فحسب... بل يتركوننا رمادًا ويُنكرون أنّهم كانوا النار.

سافرتُ دون متاع

وشمتُ قبلةَ حياةٍ على حقيبة سفري، قلتُ لعلّي حين أرحل أجدني في مكانٍ لم تطأه خيباتي، وأستعيد وجهي الذي تركته طويلًا على أبواب الآخرين.

وضعتُ فيها ما تبقّى من أحلامي، بعضًا من طفولتي، ضحكاتٍ قديمة، ورسائل لم أملك شجاعة تمزيقها، وقلبًا ظننتُ أنّه ما زال صالحًا للحياة.

لكنني... أضعتُ الحقيبة!

أضعتُ معها كلّ ما ظننتُ أنّني أحتاجه، ومضيتُ إلى السفر بلا ثياب، بلا صور، بلا ذكريات، وبلا شيءٍ يدلّ عليّ.

كنتُ أبحث عن نفسي، فاكتشفتُ أنّني لم أكن في الحقيبة، ولا في المدن التي غادرتها، ولا في الوجوه التي أحببتها.

كنتُ مختبئةً تحت ركام ما حدث لي، أنتظر أن أتعب من البحث كي أعثر عليّ.

سافرتُ دون متاع، لكنني حملتُ قلبي، وكان أثقل من كلّ الحقائب.

وللمرّة الأولى لم أحزن على ما فقدت، ربما لأنّني أدركت أخيرًا أنّ بعض الرحلات لا تحتاج إلى أمتعة، بل تحتاج إلى شجاعة أن نترك وراءنا كلّ ما لم نعد نحن.

وحين وصلتُ... لم أجد مدينةً تشبهني، وجدتني أنا، أقف على رصيف البداية، أمدّ يدي إلى نفسي وأقول:

تأخّرتُ عليكِ كثيرًا... لكنني جئتُ أخيرًا.

خاتمة الرحلة

تألّم بصمت... كي تتعلّم وتجد نفسك.

تألّم بصمت، ليس لأنّ الوجع عيب، بل لأنّ بعض الأوجاع لا تتّسع لها الحناجر، ولا تنصفها الكلمات.

دع قلبك يبكي، لكن لا تدعه يستسلم، ودع الخذلان يمرّ بك، لكن لا تمنحه مفاتيح روحك.

تعلّم من الذين غادروا، كيف لا تتعلّق ببابٍ لا يُفتح، ومن الذين خذلوك، كيف تحمي قلبك دون أن تقسو، ومن الذين أحببتهم أكثر مما ينبغي، كيف تعود إلى نفسك دون أن تكره الحب.

لا تبحث عنك في عيون الآخرين، فقد أتعبك طويلًا أن ترى صورتك في مراياهم، وتنتظر منهم أن يؤكدوا أنك تستحق الحياة.

ابحث عنك في صمتك، في أحلامك التي لم تمت، في خطواتك المرتجفة، وفي تلك الروح التي قاومت رغم أنها لم تعد تشبه نفسها.

وحين تصل إليك، لا تعاتبها على تأخّرها، احتضنها... فقد قطعت كل تلك المسافات لتعود إليك.

تألّم كي تفهم، وتعلّم كي تنضج، وارحل حين يصبح البقاء خيانةً لروحك.

فالحياة لا تنتظر أن يلتئم كل جرح، ولا تشترط أن تعود كما كنت.

يكفي أن تنهض، أن تختار نفسك، وأن تعرف أخيرًا...

أن أجمل ما قد تصل إليه في هذه الحياة، ليس قلبًا يحبك، بل قلبك حين تتعلّم ألّا تتخلّى عنه.

صباحٌ يرتدي ملامح المساء

صباحٌ يبدأ بشمسٍ نائمة، وجفونٍ أثقلها السهر، وفنجان قهوةٍ مكسور على حافة يومٍ لم يكتمل...

هو مساءٌ، وإن أشرقت فيه الشمس.

صباحٌ لا يعرف كيف ينهض، يجرُّ ظلاله خلفه، ويبحث في جيوب الوقت عن دقيقةٍ لم يلمسها الحنين.

حتى القهوة، التي اعتادت أن توقظني، انكسرت هذا الصباح، كأنها تعبت من حمل مرارتي.

لا شيء يشبه الصباح هنا، سوى الضوء العابر من النافذة، أما أنا، فما زلتُ في عتمة الأمس.

بعض الصباحات لا تشرق، إنها فقط تكشف لنا كم تأخرنا في النجاة من الليل.

فليس كلُّ ما يبدأ بالشمس صباحاً؛ بعضُ الصباحات مساءٌ تاه عن موعد غروبه.

عناقيدُ التعب

سالت من يده عناقيد الكرومِ، وسفرجلًا ناضجًا،...

نثرها على جسدٍ متهاوٍ، كأنّه يُسوّي فوضى الفصول على مساحةٍ من التعب.

تدحرجت الثمارُ فوق صمتٍ لا يعرف كيف ينام، واستلقى الجسدُ كأرضٍ أنهكها الحصاد.

كان يريد أن يرتاح، أن يُسقط عن كتفيه ثقلَ ما لم يُقَل، وأن يترك للعناقيد مهمّةَ إخفاء الندوب.

لكنّ السفرجلَ، برائحته التي تشبه الذكريات، أيقظ في الجسد كلَّ ما حاول نسيانه.

فيا ليدٍ تمنح الثمارَ ولا تمنح الدفء، ويا لجسدٍ كلّما طلب الراحة أزهرت فيه حكايةٌ أخرى.

الخاتمة

لا تظنّ أنّك أنهيت هذا الكتاب حين تطوي صفحته الأخيرة؛ فبعض الكتب لا تنتهي، بل تبدأ حكايتها الحقيقية بعد إغلاقها.

عُد إلى هذه الصفحات مراتٍ عديدة، كلّما ضاقت بك الحياة، أو أربكك سؤال، أو عجز قلبك عن تفسير ما يشعر به.

اقرأها اليوم بعينٍ، وغدًا بعينٍ أخرى؛ فسطورها متجدّدة، ومعانيها تتبدّل بقدر ما تتبدّل أنت.

قد تجد في السطر الذي تجاوزته بالأمس إجابةً كنت تبحث عنها طويلًا، وقد تصادف بين كلماته يدًا تمتدّ إليك في لحظة ظننت فيها أنّك وحيد.

هذا الكتاب لم يُكتب ليكون كلماتٍ تُقرأ ثم تُنسى، بل ليكون رفيقًا يعود إليك كلّما احتجت إلى شيءٍ يشبهك، أو يفسّر وجعك، أو يوقظ فيك ما خبا من الأمل.

عُد إليه كلّما احتجت، ففي كلّ عودةٍ قراءةٌ جديدة، وفي كلّ قراءةٍ اكتشافٌ مختلف.

فبعض الكتب تمنحك متعة القراءة، وبعضها يمنحك متعة اكتشاف نفسك...

وأرجو أن يكون هذا الكتاب من تلك الكتب التي لا تدعك ترحل عنها دون جواب.

تأليف وتدقيق: الكاتبة والشاعرة منى قبس دخيل

اللقب الأدبي: جلنار زهرة الرمان


عندما تنفتق سماءك
ستغدو نسخة أخرى
لا تعرفها
منى قبس دخيل
9 789932 000123